جامعة تشرين

جامعة سمنان

ردمد: ٢٠٠٨-٩٠٢٣

دراسات في اللغة العربية وآدابها

12

أصل وفصل حكاية ضياع البلاد

لطفية إبراهيم برهم

دلالة العدول في صيغ الأفعال (دراسة نظريّة تطبيقيّة)

غيّاث بابو

ازدواجيّة الأنا والآخر في التكوينات الرمزيّة لشعر الخمر الصوفيّة

وفيق سليطين وصالح نجم

وصف الطبيعة عند الحلّي ووردزوث: دراسة مقارنة

شاكر العامري وعباس مرادان ومحمد تقي رئيسي وفاطمة محموديان

الانزياح الكتابيّ في الشعر العربيّ المعاصر

علي أكبر محسني ورضا كياني

قياس خاصية تنوع المفردات في الأسلوب (جبران خليل جبران والمنفلوطي والريحاني)

أمير مرتضى وحامد صدقي

سردية الآخر في تجسيد استلاب الذات قراءة نقدية في رواية التجذيف في الوحل

نادية هناوي سعدون

مجلّة فصليّة دولية محكّمة تصدر عن جامعة سمنان الإيرانية بالتعاون مع جامعة تشرين السورية

السنة الثالثة، العدد الثاني عشر، شتاء ١٣٩١هـ.ش /٢٠١٣م

دلالة العدول في صيغ الأفعال (دراسة نظريّة تطبيقيّة)

الدكتور غيّاث بابو *

الملخّص

يتناول هذا البحثُ ظاهرة العدول في صيغ الأفعال، الّتي شكّلتْ مَشغلاً ذا أهميّة بارزة لأصحاب الدّراسات اللغويّة والأسلوبيّة؛ فأعطوها بُعداً جماليّاً ودلاليّاً، وهذا العدول عن الصيغ الأصليّة للأفعال في السّياق النصّي، له أبعاد بلاغيّة، ومقاصد بيانيّة، يعمد إليه النّاظم، فيكشف عن وجه من وجوه البيان الدّلالي الّذي يفاجئ المتلقي، ويثير دهشته، لمخالفته القواعد المألوفة في العرف النحوي؛ لأنّ التّركيب المعدول دلاليّاً، يؤدّي معنىً مخالفاً لما هو ظاهر، ممّا يحدو بنا إلى الوقوف على مفهوم العدول، وتحديد المصطلح في الدراسات النحوية والبلاغية، مع تلمس وجود مايقابل هذا المصطلح من مصطلحات أخرى في الدراسات الأسلوبية المعاصرة، وتحديد صوره وأنماطه في صيغ الأفعال، إذ إنّها ظاهرة نحويّة، بلاغيّة، أسلوبية، تبرز وجهاً من وجوه جماليات العربية من قدرات فائقة في التعدد الدلالي.

والعدول مصطلح يقوم على مخالفة قواعد اللغة، نشأ بصورة مغايرة لما هو مألوف في الاستعمال المتعارف عليه، من خلال ملاحظة اللغويين تراكيب خالفت القاعدة الأصل.

كلمات مفتاحية: السياق، العدول، الدّلالة .

المقدّمة

تتركّب الجملة العربية وفق قواعد وقوانين منصوص عليها في كتب اللغويين، وقد ينحرف التركيب اللغوي عمّا هو معتاد ومألوف، بسبب سياقي ما، فيأخذ التركيب معنىً آخرَ هو الأساس غير المعنى الظاهر، فيتجاوزه إلى دلالات أخرى، ذات وظيفة بلاغية، لا تُفهم إلاّ من خلال القرائن الحالية، والسّياقية.

---

* - مدرّس في قسم اللغة العربيّة، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، الحسكة، جامعة الفرات، سورية.

تاريخ الوصول: ١٣٩١/٠٢/١٥هـ.ش= ٢٠١٢/٠٥/٤م تاريخ القبول: ١٣٩١/٤/٢٥ هـ.ش = ٢٠١٢/٠٧/١٥م

فالدراسات النحوية واللغوية ركّزت على استنباط القواعد التي تتعلّق بأقسام الكلام، وما يتعلّق بالجملة من مباحث، ومن ثَمّ تطبيقها على الكلام الفصيح من قرآن وشعر ونثر؛ في حين تجاوز علماء المعاني هذه الشكليّة، وهذه القواعد المثالية إلى فهمٍ أعمقَ وأدقَّ للمعنى، فحاولوا الغوص في أغوار المعنى، كاشفين أسراره، فانبثقت عنهم مصطلحات عدّة مثل: الالتفات والعدول والحذف والتعريف والتنكير وغيرها، وما يهمّنا هنا التركيز على بحث العدول النحوي في التركيب الفعلي، عسانا نقدّم دراسة علميّة جادّة لما فيها خير اللغة التي نتكلّم بها، والتراث الذي نفخر به.

لقد ارتبط مصطلح العدول ارتباطاً وثيقاً بظواهر لغوية لا تزال ميدانَ بحثٍ في الدراسات البلاغية والأسلوبية المعاصرة، وخيرُ ما يمثل مصطلح العدول في التراث اللغوي العربي مقولة البلاغيين: إجراء الكلام لا على مقتضى الظاهر، فهي الحجر الأساس الذي ترتكز عليه نظرية العدول اللغوي، وقد ذكر السكاكي أنّ "الطّلب كثيراً ما يخرج لا على مقتضى الظاهر، وكذلك الخبر، فيذكر أحدهما في موضع الآخر، ولا يُصار إلى ذلك إلاّ لتوخي نكت....."[١]

وما يرمي إليه السكاكي هو أنّ العدول عن التركيب اللغوي إلى تركيب آخر، له قيمة بلاغية،لا تُعرف إلاّ من خلال الخروج عن المألوف، ومخالفة الكلام لمقتضى الظّاهر، والغوص في المعنى العميق للفظة.

وقد حظي هذا المصطلح بعناية اللغويين القدماء، ولُقّب بشجاعة العربيّة، فصرّحوا به كثيراً في أثناء تحليلهم للظّاهرة اللغوية حيثُ يقع العدول على المستوى الاستبدالي، كالعدول عن صيغة فعل إلى صيغة فعل آخر يحلُّ محلّه، على خلاف القواعد الموضوعة في العرف اللغوي ولا يخفى هذا الأمر لدى الزمخشري، إذ ذخر كتابه الكشّاف بهذه الظاهرة الأسلوبية، البلاغية، فقد أدرك أنّ ما في هذه المغايرات من انحراف عن القواعد المثالية عند النحاة جاءت لغايات جمالية قصديّة، فنبّه إلى كثرة انتشارها، وبيّن مواضعها في الكتاب العزيز، وخيرُ مثال على ذكره هذا المصطلح أي العدول ــ وقوفُه عند قوله تعالى: ﴿ **إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾.[٢]

---

[١]- السكاكي، **مفتاح العلوم**، ص ٣٢٣.

[٢]- هود، ٥٤.

يقول لقومه: كونوا شهداء على أنّي لا أفعله، فإن قلت: هلاّ قيل: إنّي أشهدُ اللهَ، وأشهدكم، قلت: لأنّ إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلاّ تهاون بدينهم، ودلالة على قلّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة، تهكّماً به، واستهانة بحاله ".[١]

تقتضي القواعد النحوية كون: اشهدوا، فعلاً مضارعاً ليصحّ العطف على الفعل الخبري: أشهدُ، والدّلالة السّياقية تقتضي خلاف ذلك، فعدل به عن معنى المضارع إلى معنى الأمر.

إنّ الأفعال في السّياق اللغوي قد تتبادل أزمنتها، فعلى سبيل المثال الفعل الماضي الذي يدلّ على الزّمن الماضي، قد يُعدل عن زمنه الماضي في السّياق اللغوي إلى الزّمن المستقبل، إذا دلّ على الدعاء أو رُكّب مع إنْ، الشرطية، ويصبح زمن المضارع المركّب مع لم الجازمة دالاً على الماضي، والأمثلة كثيرة في التراث اللغوي، وقد ذكر ابن الأثير أنّ الأفعال تتبادل أزمنتها كالرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر.[٢]

إذ إنّ السّياق يعين على تحديد زمن الفعل لأنّ الأفعال خارج السّياق لا دلالة زمنية لها، كما للسياق دور مُهمّ في تعيين المقصود من الدّلالة الزّمنية للأفعال، ولهذا انتقد د. فاضل الساقي النحاة لتركيزهم على الزّمن في صيغة الفعل، وإهمالهم السّياق الذي ورد فيه، فكان على النحاة أن يدركوا أنّ الأفعال مجرد صيغ، وألفاظ تدلّ على زمن ما، هو جزء من معنى الصيغة، وأنّ السياق أو الظروف المقولية بقرائنها الحالية والمقالية، هي وحدها التي تعيّن الدّلالة الزّمنية المقصودة من الفعل، وترشحها لزمنٍ بعينه.[٣]

فالزمن في الصيغة المفردة لا قيمة له خارج السّياق، أمّا في حال التركيب مع الفعل في الكلام، فيصبح له زمنٌ، يُسمّى بالزمن السّياقي التّركيبي، تحدده القرائن اللفظية أو الحالية، فيُظنُ في التركيب

---

[١] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٢/ ٤٠٣، ٤٠٤.**

[٢] - ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ١٣/٢ .**

[٣] -فاضل الساقي، **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، ص ٢٢٢.

الشكلي، اللفظي، أنّ الفعل ماضٍ، وتكون حاله كذلك، غير أنّ معناه يكون مُخالِفاً اللفظَ، وهذا هو معنى الفعل السياقي.

يقوم السّياق بدور رئيس في تأسيس جماليات التركيب اللغوي من خلال تلك التنويعات اللغوية، واللعب بأدوار الكلمات التي يحدثها الخطاب اللغوي عبر البنى السطحية والعميقة، والمعوّل في فهم جماليات التركيب اللغوي، فهمُ الزمن السياقي لا النحوي؛ لأنّ الزّمن الصّرفي دلالة الكلمة المفردة خارج السّياق، في حين يختصُّ الزمن النحوي السياقي بالتركيب، ويمكن أن نطلق عليه: الزّمن المركّب، "فالزمن في النحو وظيفة السياق، وليس وظيفة صيغة الفعل، لأنّ الفعل الذي على صيغة: فَعَلَ، قد يدلّ في السياق على المستقبل، والذي على صيغة المضارع، قد يدلّ فيه على الماضي..... فالزمن السياقي في النحو جزء من الظواهر الموقعية السياقية، لأنّ دلالة الفعل على زمن ما، تتوقف على موقعه وعلى قرينته في السياق".[١]

نجد ممّا سبق أنّ للفعل زمنين، زمناً صرفياً يتجلّى في الصيغة المفردة خارج السياق النصّي، وهو زمن ثابت تُعنى به الدراسات الصرفية كدلالة صيغة: فَعل على الماضي، وصيغة: يفعلُ، على الحاضر أو المستقبل، وصيغة: افعلْ، على الحاضر أو المستقبل، وزمناً سياقياً أوسع من الزمن الصرفي لأنه على مستوى الجملة والتركيب، فيتجاوز الزمن الثابت، إذ ليس بالضرورة، في السياق النصّي، أن تدل صيغة: فَعلَ، على الماضي، ولا صيغة: يفعلُ على الحاضر أوالمستقبل، بل بفضل تضافر قرائن السياق قد تدلّ على المستقبل أو الماضي. وفي مجال الدراسات العربية المعاصرة، يمكن أن يكون عبد السلام المسدي أولّ من استخدم المصطلح تحت اسم الانزياح؛ ليعني به تارة التجاوز، وأخرى العدول، وبيّن مصطلحات أخرى لها علاقة بالانزياح من أبرزها: الانزياح، الانحراف، المخالفة، وغيرها.[٢]

وقد كثر في الدّراسات الأسلوبيّة المُعاصرة الجمع بين مصطلحي: العدول والانزياح، إلى حدّ عدهما مُصطلحاً واحداً، غير أنّ الأول قديم بلاغي، والثاني حديث أسلوبي، "فمصطلح الانزياح معادل أسلوبي حديث لمصطلح العدول البلاغي الذي يعني أنّ شعريّة اللغة تقتضي خروجها السّافر على العرف النثري

---

[١] - تمام حسان، **اللغة العربية، معناها ومبناها**، صص ١٠٤ ــ ١٠٥.

[٢] - مولاي علي بوخاتم، **مصطلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصول والامتداد**، صص٢٧١ ــ ٢٧٢.

المعتاد، وكسر قواعد الأداء المألوفة لابتداع وسائلها الخاصّة في التعبير عمّا لايستطيع النثر تحقيقه من قيم جمالية".[١]

فالعدول هو الانزياح من خلال مخالفة البنية التركيبيّة السطحية للكلام، المعنى الدلالي العميق، وتحميل الكلمة طاقة دلالية مغايرة لمقتضى الظاهر وفق قرائن سياقية وحالية، "ورُبَّما كان مصطلح العدول من أقوى المصطلحات القديمة تعبيراً عن مفهوم الانزياح".[٢]

أهمية البحث وأهدافه:

يسعى هذا البحث إلى دراسة ظاهرة مهمة من ظواهر النحو والبلاغة هي ظاهرة العدول بصورة مغايرة لما هو مألوف في القواعد العرفية، ثراء اللغة العربية بظواهر لغوية تستحق الدراسة والعناية، وقد استطاعت أن تحافظ على معظم خصائصها الدلالية والأسلوبية، ومن هذه الظواهر: ظاهرة العدول النحوي التي لها دور كبير في إعطاء اللغة طاقة دلالية، مغايرة لما هو مألوف في العرف اللغوي وقد تتبعتُ هذه الدلالة في صيغ الأفعال من خلال أزمنتها في السياق النصّي، لا الصّرفي، مبيّناً مواضعها، متخذاً الشواهد المناسبة نماذجاً تطبيقيّة، إذ إنّ البحث لا يقف عند حدود القاعدة النحوية الوصفية فقط، بل يتجاوزها بالدراسة والتحليل، واستنباط الأبعاد الدلالية المقصودة من مخالفتها.

منهجية البحث:

إنّ طبيعة البحث جعلتني أحاول الجمع بين منهجين، فاستعنت بالمنهج الوصفي الاستقرائي في البحث عن صور العدول النحوي في صيغ الأفعال في التراث اللغوي القديم، من خلال كتب النحويين والبلاغيين، وما جاؤوا به من شواهد لتأكيد قاعدتهم، وإقرارفكرتهم، ومنثمّ استعنتبالمنهجالتحليلي في البحثعن دلالةالعدولفيصيغ الأفعال التي ترد في سياق الكلام لأنّ للسياق دوراً كبيراً في تحديد المعنى.

صور العدول النحوي في صيغ الأفعال:

إنَّ التركيب الفصيح الذي يحمل معنى، يتكوّن في أبسط صوره من ركنين أساسين يدخلان في بنيته، لا غنى لأحدهما عن الآخر، هما: المسند، والمسند إليه، ويُسمّى ذلك تركيباً، وحين نتأمّل بنيته، تتراءى

[١] - علاء الدين رمضان السيد، **ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث**، ص١٤١.

[٢] - أحمد محمد ويس، **الانزياح في التراث النقدي والبلاغي**، ص ٣٧.

لنا في صورتين: الجملة الاسمية التي يتصدّرها اسم، والجملة الفعلية التي يتصدرها فعل، وهذه البنية بصورتيها هي أبسط أنماط التركيب اللغوي، وثّمة أنماط أخرى تتخلّق ممّا يتواصل مع ركنيها من لواحق ومتممات، يتخيّر اللغوي هذا النمط أو ذاك لغاية يرمي منها، ورُبّما يتجاوز المعنى الأصلي إلى معنى آخر، يلغز من خلاله إلى دلالة زائدة على الأصلية، وقد يكون اللفظ شيئاً، ودلالته شيئاً آخر، ومن هنا تنشأ قواعد عدّة، تخرج على القاعدة الأم، تسمَّى فروعاً، أو توسّعاً، أو انحرافاً، أو عدولاً، أوغير ذلك، مثل: الاختلاف في توافق الفعلين وتطابقهما في أسلوب العطف، وغيره، واستعمال الماضي أو المضارع أو الأمر في اللفظ، والمقصود ضدّه في المعنى. وقد حاولنا إحصاء صور العدول النحوي في التركيب الفعلي، فتمثلت بستّ صورٍ على النحو الآتي:

١ــ العدول عن الفعل الماضي إلى المضارع:

كثيراً مايُعدل عن الفعل الماضي إلى المضارع، ويكون هذا العدول على نوعين[١]: نوع يُستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث **قد مضى وانقضى**، ونوع آخر يُستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث **يقع في الحال والاستقبال**.

أمّا النوع الأول: فمجيء المضارع فيه للدلالة على حدث قد مضى، فقد قرّر علماء البلاغة أنّ المضارع في هذه الحالة يقصد به استحضار صورة حدث في الماضي، وكأنّه أمر مشاهد بارز للعيان، وهذا من البلاغة، فيكون التعبير بالفعل المضارع أبلغ من الماضي، يقول ابن الأثير: "واعلم أنّ الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأنّ الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتّى كأنّ السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي"[٢].

وهذا ما أطلق عليه الزمخشري مصطلح: حكاية الحال، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾.[٣]

---

[١]- ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ١٩٤/٢.

[٢]- **المصدر نفسه**، ١٩٤/٢.

[٣]- فاطر، ٩.

"فإنْ قلت لِمَ جاء: فَتُثِيرُ، على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت: ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية".[١]

وذكر ابن هشام "أنّهم يعبرون عن الماضي والآتي كما يعبّرون عن الشئ الحاضر قصداً لإحضاره في الذهن حتّى كأنّه مشاهد حالة الإخبار، ورأى أنّ المقصود بقوله: فَتُثِيرُ، إحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من إثارة السحاب، تبدو أوّلاً قطعاً ثمّ تتضامُّ متقلِّبة بين أطوار حتّى تصير رُكاماً ".[٢]

وكما أنّ العدول في صورة الفعل: تثيرُ، سيق لحكاية الحال التي تدلّ على الدهشة والانبهار والإعجاز، فكذلك له دلالة زائدة على الدلالة الأولى، هي استحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة.[٣]

فالسياق هو الذي أضفى على الفعل المضارع في هذه الحالة دلالة زمنية معينة، وذلك من عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي، إذ يقتضي السياق بموجب المطابقة الزمنية أن تجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد، يقول السيوطي:"وما عطف على حال أو مستقبل أو ماضٍ أو عطف عليه ذلك فهو مثله؛ لاشتراط اتحاد الزمان في الفعلين المتعاطفين".[٤]

فمجيء الفعل المضارع في هذه الحالة خارجاً عن النسق العام للسياق؛ يؤدي إلى توليد دلالتين بارزتين في السّياق، دلالة نحوية متمثلة في الفعل المضارع الدال على الزمن الحاضر أو المستقبل، ودلالة سياقية متمثلة في الإشارة إلى الزمن الماضي، وذلك بالعطف على الماضي، أو مجيئه بعده، فالدلالة السياقية تقتضي مضيّه، والدلالة النحوية للصيغة تقتضي استحضاره، فيجمع بين الدلالتين ليقال: إنّه الماضي الحاضر، أو بعبارة: فندريس المضارع التاريخي، وذلك "استعمال شائع في الحكاية حيث يُسمّى

---

[١] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف، ٣/٣٠١.**

[٢] - ابن هشام الأنصاري، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ص ٩٠٥ ـــ ٩٠٦.

[٣] - ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ٢/١٩٥.**

[٤] - السيوطي، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ١/٢٣.**

بالحاضر التاريخي، وفيه يجد المثقفون سحراً خاصّاً، يقولون بأنّ الحاضر أكثر تعبيراً أو أبلغَ، حتّى ليجعل المنظر يحيا من جديد أمام عيني القاريء، ويرجع بفكرنا إلى اللحظة التي دار فيها الحديث".[١]

ويقول ابن الأثير:"فإن قيل: إنّ الفعل الماضي أيضاً يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل، قلت في الجواب: إن التخيل يقع في الفعلين معاً، لكنّه في أحدهما، وهو المستقبل، أوكد وأشدّ تخيّلاً؛ لأنّه يستحضر صورة الفعل، حتّى كأنّ السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي؛ لأنه لا يتخيّل السامع منه إلاّ فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه، وهذا لا خلاف فيه".[٢]

وعدّ السكاكي هذا النوع من العدول أصلاً بلاغياً ثابتاً إذا اقتضى السياق اللجوء إليه، فقال: "وإنه - أي الانتقال من التعبير بالماضي إلى المضارع - طريق للبلغاء، لا يتحولون عنه، إذا اقتضى المقام سلوكه".[٣]

ويرد هذا النوع من العدول بكثرة في الكتاب العزيز، ويعدُّ من روائع البيان فيه، إذ عمد القرآن الكريم إلى صورة مغرقة في القدم فاستدعاها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر؛ لتصبح كأنّها مشاهدة ماثلة للعيان، من ذلك قوله تعالى مخاطباً اليهود: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ**﴾ [٤]

ففي هذا السياق حصل عدول عن الفعل الماضي: قتلتم، إلى الفعل المضارع: تقتلون، وكان مقتضى السياق يوجب المطابقة الزمنية بين الأفعال على النحو الآتي: ففريقاً كذّبتم، وفريقاً قتلتم. لا سيّما أنّه يتحدّث عن أمر حدث في الزمن الماضي، من تكذيب اليهود للأنبياء وقتلهم إياهم، لكنّ السياق تحول

---

[١] - فندريس، **اللغة**، ص ١٣٨.

[٢] - ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ٢/ ١٩٦.

[٣] - السكاكي، **مفتاح العلوم**، ص٢٤٧.

[٤] - البقرة، ٨٧.

عن الماضي إلى المضارع؛ لأنّ قتل الأنبياء أمر فظيع، فأراد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب.(١)

فللفعل الماضي زمانان؛ زمن حدوث ووقوع، وزمن إخبار عنه، وهو ما أشار إليه الزجاجي بقوله: "والفعل الماضي ما تقضى، وأتى عليه زمانان، لا أقل من ذلك، زمان وجد فيه، وزمان خبر فيه عنه".(٢)

فإذا أخذنا بدلالة الماضي، كانت دلالة الفعل: تقتلون، تفيد استحضار الصورة لحدث مضى في الزمان، وإذا أخذنا بما توحيه الحادثة من استحالة حصول الفعل، وتحققه بالنسبة إلى هذا النبي، كانت دلالة الفعل: تقتلون، تفيد تجدد محاولة الفعل منهم والاستمرار، والجمع بينهما نوع من الانفتاح الدلالي للنصّ القرآني.

وهذا يعدّ من بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، فقد تمّ توظيف القيمة الزمنية في صياغة الفعل للحصول على فروع تتعدد فيها دلالات الفعل وتتسع .

ويعدل عن الماضي المنفي إلى المضارع المنفي، فيفيد الفعل المضارع في هذه الحالة تأكيد النفي، وليس استحضار الصورة؛ كما هو الحال مع المضارع المثبت، وهذا ما ذهب إليه ابن جني إذ قال: "ومنه قولهم: **لَمْ يقمْ زيدٌ**، جاءوا فيه بلفظ المضارع، وإن كان معناه المضي؛ وذلك أنّ المضارع أسبق رتبة في النفس من الماضي، ألا ترى أنّ أول أحوال الحوادث أن تكون معدومة، ثمّ توجد في ما بعد، فالمضارع معدوم باعتبار أنه لم يقع بعدُ، أمّا الماضي فقد وقع وانتهى، فإذا نفي المضارع الذي هو الأصل فما ظنُّك بالماضي الذي هو الفرع".(٣)

وفي هذا النفي نوع من التوكيد، فالتعبير بالمضارع المنفي بدلاً من الماضي لا يفيد عند ابن جني استحضار الصورة، كما يفيد التعبير بالمضارع بصفة عامة، ولكنه يأتي لإرادة التوكيد.

١- الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ١/٢٩٥.

٢- أبو القاسم الزجاجي، **الإيضاح في علل النحو**، ص ٨٧.

٣- ابن جني، **الخصائص**، ٣/١٠٥.

وبناء على ما تقدّم، يمكننا فهم سرّ العدول في سياق قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾.[١] فالمتوقع من سياق الأفعال في هذه الآية أن تكون على النحو التالي: فما استكانوا لربّهم، وما تضرّعوا، لكنّ السياق القرآني تحوّل عن الماضي المنفي إلى المضارع المنفي، وقد يكون السبب في ذلك أنّ حالة التضرّع هي مرتبة أعلى في الخضوع من الاستكانة نفسها، إذ التضرّع ضرب من الإمعان في الابتهال، والخشوع واللجوء إلى الله تعالى، على سبيل التجدد والاستمرار، فنفي ما هو أدنى يستلزم من باب أولى التأكيد في نفي ما هو أعلى رتبة، فإذا انتفت الاستكانة منهم، فمن باب أولى ينتفي حصول أدنى تضرّع منهم، لذا تحوّل السياق في النفي عن الماضي إلى المضارع؛ فنفي المضارع أشدُّ تأكيداً من نفي الماضي، فوافق المقال مقتضى الحال، وعبّر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام و الاستمرار، غير أنّ المراد دوام النفي، ولو جرى السياق على النمط المتوقع، فجاء: فما استكانوا لربهم وما تضرّعوا، لكان المقصود: وما تضرّعوا التضرّع المطلوب لرفع البلاء، وكشف العذاب، وإنّما جاء: وما يتضرّعون، لنفي حصول أدنى شيء من التضرّع أصلاً.

وقد يكون العدول عن الماضي إلى المضارع لحكاية الحال الماضية؛ إذ إنّ حكاية الحال لا تقتصر على المضارع، بل تتعداه إلى الماضي، كقول رجل من بني سلول مُوَلَّد:[٢]

ولقد أمُرُّ على اللَّئيمِ يَسُبُّني فمضيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لايَعْنيني

فعدل عن الماضي: مررتُ، إلى المضارع: أمرُّ؛ لأنّه حكى فيه الحال الماضية، والحال لفظها أبداً المضارع.[٣]

وما سبق ذكره من الشواهد هي نماذج للنوع الأول الذي يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث مضى وانقضى.

وأمّا النوع الثاني: فيرد فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال. ويقرّر البلاغيون أنّ مجيء المضارع للدلالة على الحال والاستقبال؛ يفيد التجدّد والحدوث، وأنّ هذا الحدث مستمر

---

[١] - المؤمنون، ٧٦.

[٢] - سيبويه، **الكتاب**، ٣/ ٢٤. وقد أشار سيبويه إلى هذه المسألة بقوله : وقد تقع : نَفْعَلُ، في موضع : فَعَلْنَا، في بعض المواضع .

[٣] - **الخصائص**، ٣ / ٣٣١ ـــ ٣٣٢.

الوجود، و لم يمضِ، يقول ابن الأثير: "وعطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين: أحدهما بلاغي، وهو إخبار عن ماضٍ بمستقبل، والآخر غير بلاغي: وليس إخباراً بمستقبل عن ماضٍ، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماضٍ، ويراد به أنّ ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمضِ".[١]

يُفهم من كلام ابن الأثير أنّ هذا النوع من العدول ليس ضرباً من ضروب البلاغة، بل إنّ ابن الأثير نفسه عند تحليله لنماذج قرآنية من هذا النمط، أشار إلى وجه البلاغة والبيان فيها، ممّا يوحي بالتضارب لديه.[٢]

ويشير هذا النوع من العدول في السياق اللغوي إلى دلالات عدّة منها: الدلالة على **تجدّد الحدث واستمراره**، والدلالة على **إطالة مشهد الحدث**، **والتركيز على نتيجة الحدث**. فمن السّياقات التي يدل هذا العدول فيها على **التجدّد والاستمرار**، قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾.[٣]

عدل عن الماضي إلى المضارع: تطمئنُّ، لدلالته على تجدد الاطمئنان، واستمراره؛ وأنّه لا يتخلله شكّ ولا تردد، ولو جرى السياق على نمط ماضٍ واحد: الذين آمنوا واطمأنّت قلوبهم، لَما أفاد معنى التجدد والاستمرار الذي نجده في زمن المضارع الذي أضفى دلالة الزمن المفتوح في الماضي والحاضر والاستقبال، فقلوبهم قد اطمأنت بذكر الله منذ الزمن الماضي، وما تزال تطمئنُّ في الحال والمستقبل، في حين ورد ذكر الإيمان بصيغة المضي: آمنوا، لإفادة معنى الحصول والتحقق، فهو ثابت متحقق كتحقق الماضي.

ومن الآيات التي فيها دلالة على **إطالة مشهد الحدث**، قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُشرِكْ باللّه فكأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتخطِفُهُ الطَّيرُ أو تَهْوي بِهِ الرّيحُ في مكَانٍ سَحيقٍ** ﴾ [٤]. عدل عن الماضي: خطفته، هوَت، إلى المضارع: تخطفُهُ، تهوي، لأنّ الفعل الماضي يدل على تحقق الوقوع والحصول، فبدأ بفعل

---

[١] - ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ٢/١٩٤.

[٢] - **المصدر نفسه**، ٢/١٩٧-١٩٨.

[٣] - الرعد، ٢٨ .

[٤] - الحج، ٣١.

الخرور للدلالة على سرعة وقوعه وحصوله من قبل اللّه تعالى على المشرك، ثمّ عدل إلى المضارع فقال: فتخطفُهُ، أو تهوي؛ لاستحضار صورة خطف الطير إيّاه، وهوي الريح بـه.[١] فكـان العـدول إلى المضارع لاستحضار المشهد وإطالته، وأمعن في إطالة مشهد الهوي أيضاً مجيء الحرف (في) الذي أفاد هنا الإمعان في تصوير التسفل والسقوط، وكأنّ المكان السحيق قد أصبح ظرفاً ووعاءً له لا ينتهي فيه إلى قرار. ولو قال: إلى مكان سحيق، لأفاد انتهاء الهوي به إلى منطقة معينة، لأنّ: إلى، لانتـهاء الغايـة، و(في) للظرفية المكانية والوعاء، وذلك يوحي بالتهديد الشديد والوعيد لمن كانت هذه حاله. ولـو جـرى التركيب القرآني على النمط نفسه فبدأ بالماضي وانتهى بالماضي، لكان الحدث عاديا ليس فيه أيّ لفت للانتباه، وبالعدول أصبح للتركيب جماليته. "فنقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر أنشط للإصغاء، وأعظم شوقاً للسامع إلى سماعه، وأكثر تحريكاً للداعية إلى قبوله من أن يكون على أسلوب واحد".[٢]

ومن أمثلة التركيز على **نتيجة الحدث** قولـه تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِير**﴾.[٣] ففي الآية السابقة نجد أنه عدل عن الماضي: فأصبحت، إلى المضارع: فتصبح، واختيرت صيغة الماضي في: أنزل من السماء، وذلك لأن "الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث ذاتها، بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها".[٤]

فمحلّ التأمل في الآية ليس فعل الإنزال، إنزال الماء نفسه فقط، إنّما مظاهر هذا الفعل وآثاره، بجعل الأرض مكسوة ثوباً من الاخضرار.

في حين جاء العدول إلى المضارع: فتصبح، "لِتُثَبِّتَ المشهد عند نقطة مهمّة، ينبغي للمتلقي أن يقف عندها ويستحضرها دائماً أمام عينيه"[٥]. وفيه دلالة على "بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال المـاء مضى وجوده، واخضرار الأرض باقٍ لم يمضِ"[١].

---

[١] - ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ٢ /١٩٧.

[٢] - يحيى بن حمزة العلوي، **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز، من العلوم البيانية والأسرار القرآنية**، ص ٤٣٥.

[٣] - الحج، ٦٣ .

[٤] - **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، ص ٩٧.

[٥] - **تحولات البنية في البلاغة العربية**، ص ٣٢.

ومنظر الخضرة في الأرض يشيع البهجة في النفس، ويطمئن النفوس على أرزاقها، لذا جاء التعقيب بقوله تعالى: إنّ الله لطيف خبير، فهو لطيف بعباده، خبير بما يصلح أحوالهم.

٢ــ العدول عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي:

يرد هذا النوع من العدول في تراكيب كثيرة، إلا أنّ النحويين قد اختلفوا في هذه المسألة، فمنهم من أجاز العطف، عطف الماضي على المضارع، كالزمخشري والرضي، في حين نجد آخرين كالفراء وأبي حيان وغيرهما قد منعوا العطف، فلجأوا إلى تأويل الماضي بالمضارع؛ لينسجم السياق لديهم، وليتفق مع قواعدهم اللغوية ومقاييسها.[٢]

وممّا استُدِلّ به كشاهدٍ على هذه المسألة، قوله تعالى: ﴿ **إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ** ﴾ [٣]، فـ: ظلّت، فعل ماضٍ في اللفظ، مقرون بالفاء، مستقبل في المعنى، وهو معطوف على الجواب: نزّلْ، مجزوم مثله في المحل، ومن منع أوّل ذلك بالمضارع ليصح العطف، فيصبح التركيب: نُنَزِّلْ، فتظلّ.

وذكر يحيى بن حمزة العلوي أنّ مثل هذا العدول يدلّ على مبالغة في الثوابت والاستقرار.[٤]

يوحي كلام العلوي أنّ العدول عن المضارع إلى الماضي في مثل هذه الحالة يدل على الاستقرار والثبات، إلا أنّ هذه الدلالة غير ثابتة، فهناك دلالات كثيرة تفهم من قرائن السياق، كقوله تعالى: ﴿**إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ**﴾[٥]، فعُدِل عن الفعل المضارع: يودوا، إلى الفعل الماضي: ودّوا، الذي حقّه أن يكون فعلاً مضارعاً معطوفاً على جواب الشرط: يكونوا، ويبسطوا.

---

[١] - ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ٢/١٩٨.

[٢] - الفراء، **معاني القرآن**، ٢/٢٧٦. **الكشاف**، ٣/٢٩٨. شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة قار يونس، ١٩٧٨ ، ٣/٣٧٤.

[٣] - الشعراء ، ٤.

[٤] - يحيى بن حمزة العلوي، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، ٢/١٤٠

[٥] - الممتحنة ، ٢.

ذكر الزمخشري في الآية السابقة أن العدول عن المضارع إلى الماضي فيه نكتة، وهي تنبُّهُه إلى الزمن، فالماضي أسبق في الحصول من المضارع، على خلاف قول ابن جني السابق، بقوله: "فإن قلت: كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله، ثم قال: وودّوا، بلفظ الماضي؟ قلت: الماضي، وإن كان يجري في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإنّ فيه نكتة، كأنّه قيل: ودّوا قبل كلّ شيءٍ كفرَكُم وارتدادُكم، يعني: أنّهم يريدون أن يلحقوا بكم مضارَّ الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض، وردّكم كفاراً، أسبق المضار عندهم لعلمهم أن الدين أعزّ عليكم من أرواحكم، لأنكم بذّالون لها، والعدو أهمّ شيء عنده أن يقصد شيء عند صاحبه".[١]

وذهب السكاكي إلى أن صيغة الماضي ههنا تدل على تحقق الحدث وحصوله لا محالة فـ "ترك: يودّ، إلى لفظ الماضي، إذ لم تكن تحتمل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم أي يثقفوهم أعداء لهم، وباسطي الأيدي، والألسنة إليهم للقتل والشتم ".[٢]

بيّن ابن جني أن وقوع الماضي في جواب الشرط موقع المضارع يدلّ على تحقق الوقوع، لأن المضارع مشكوك في حصوله، فإذا أردت أن تجعل الشيء غير الواقع بمنزلة الواقع، عدلت عن المضارع إلى الماضي للتوهم بأنه قد وقع وحصل، كقولهم: **إِنْ قمْتَ قمْتُ**، فيجيء بلفظ الماضي، والمعنى معنى المضارع، وذلك لأنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتى كأن هذا قد وقع واستقرّ، لا أنه متوقّع مترقّب".[٣]

فالإنسان إذا أحبّ شيئاً أو تعلق به، فلكثرة دورانه في خلده، وفي نفسه يظنّ أنّ هذا الشيء قد تحقق فيعبّر عنه بالفعل الماضي، ظنّاً منه أنّه تحقّق لأنّ "العرب إذا أرادت المعنى مكّنته، واحتاطت له".[٤]

وقد يكون العدول عن المضارع بقرينة لفظية للدلالة على توقّع حدوثه أو الثقة بوقوعه، كقول الطِّرمَّاح:[١]

---

[١] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف، ٥١٣/٤.**

[٢] - السكاكي، **مفتاح العلوم، ٢٤٠.**

[٣] - ابن جني، **الخصائص، ١٠٥/٣.**

[٤] -**المصدر نفسه، ١٠١/٣.**

وإنـــّي لآتيـــــكُمْ تَشَكّـــُرَ مَا مَضـــَـــى مِنَ الأمرِ، واسْتِنجـــَازَ مَا كـــَانَ في غـــَـــدِ

أي: ما يكون، فيكون عذره فيه: أنّه جاء بلفظ الواجب تحقيقاً له، وثقة بوقوعه، أي: أنّ الجميـــل منكم واقع متى أريد، وواجب منّي متى طُلب.[٢]

إذ إننا نرى أنّ العدول في هكذا تركيب- أي العدول عن الفعل المضارع (يكون)، ومجيئه بالماضي (كان) مع وجود قرينة لفظية: غد، تُحتّم كونه مضارعاً- كان لغرض أسلوبي دلالي؛ يجعـــل المجـــال مفتوحاً لتوليد قواعد نادرة أو بعبارة أخرى يمكن أن نعدّه توسّعاً في القاعدة الأم كما يرى ريفاتير" أنّ الانزياح يكون خرقاً للقواعد حيناً ولجوء إلى ماندر حيناً آخر".[٣]

فدلالة العدول عن الفعل المضارع إلى الفعل الماضي تفهم من السّياق نفسه، مقارنة بـــين الفعلـــين، الفعل الأصلي المعدول عنه، والفعل المعدول إليه، والدلالات التي يحتملها كلّ فعلٍ.

٣ـــ العدول عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر:

يبيّن لنا التراث اللغوي كثيراً من الظواهر اللغوية التي خالفت المقاييس النحوية، فمـــن المعهـــود أنّ الجملة الخبرية تعطف على مثيلتها، وكذلك الإنشائية تعطف على الإنشائية، فإذا جاء التركيب مخالفـــاً لهذه القاعدة عُدّ خروجاً عن الأصل، ولا يكون ذلك إلاّ لتحقيق أغراض بلاغية يعيننا علـــى معرفتـــها والعلم بها السياقُ، فـــ" أسلوبية الانزياح مكوّنة من طبيعتين: خرق للمعيار النحوي من جهة، وتقييد لهذا المعيار بالاستعانة بقواعد إضافية من جهة ثانية"[٤]؛ وقد يعدَل عن ذكر الفعل الماضي، ويحـــوّل إلى الأمر للدلالة على السرعة والامتثال، وكيفية وقوع الحدث، كقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّـــاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ**﴾.[٥]

---

[١]- ابن منظور، **لسان العرب**، م: كون.

[٢]- ابن جني، **الخصائص**، ٣ / ٣٣٢.

[٣]- محمد تحريشي، **النقد والإعجاز**، ص ٢٠٦.

[٤]-المرجع نفسه، ٣٩

[٥]- البقرة، ٢٤٣.

فسياق الآية الكريمة يخبر عن أحداث قد مضت، كـــ: خرجوا، و: فقال، ثم عُدِل فجأة عن الماضي إلى الأمر: موتوا، للدلالة على أنّ الحدث قد وقع بسرعة، وأنّ الأمر المخوف منه، هو الموت لا يكـــون إلا من عند اللهِ، فشمل جميع الناس، قال الزمخشري: "فإنْ قلت: ما معنى قوله: فقال لـــه الله موتـــوا؟ قلت: معناه: فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجلٍ واحدٍ بأمر الله، ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنّهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقّف".[١]

وقد يُعدل عن الماضي إلى الأمر للدلالة على التضاد، ويكون العدول عن الخبر إلى الإنشاء دلالة على التضاد لأن دلالتهما مختلفة مبنىً ومعنىً، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَـــيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ** ﴾.[٢] عدل عن الماضي إلى الأمر: فاجتنبوا، للتفريق بين البنيتين المتضادتين، و: أحلّت واجتنبوا، فيشير الفعل: وأُحِلّت، على فضل الله وامتنانـــه علـــيهم، بإحلاله الأنعام لهم، ثم عدل عن الماضي إلى الأمر: فاجتنبوا، للدلالة على الامتثال لأمر الله، فـــ "لّمـــا حثّ على تعظيم حرمانه، وأحمد من يعظمها، أتبعه بالأمر باجتناب الأوثان وقول الزور، لأنّ توحيـــد الله ونفي الشركاء عنه، وصدق القول أعظم الحرمات وأسبقها خطواً".[٣]

ولو كان التركيب ماضياً على نسق واحد: وأحلّ لكم الله الأنعامَ وحرّم عليكم الـــرجس، وقـــول الزور؛ لما كان فيه القوة والسرعة لامتثال أمر الله، لأنّ الأمر أشدّ وقعاً منَ الماضي.

ومن الدلالات التي يفرزها السياق جراء العدول عن الماضي إلى الأمر: إظهار العنايـــة والاهتمـــام بالشئ المعدول عنه في السياق اللغوي، كقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَـــا بِسْـــمِ اللَّـــهِ مَجْرَاهـــا وَمُرْسَاهَا**﴾[٤]. فإذا أمعنا النظر في صيغة الفعل: اركبوا، تبادر إلى الذهن أنه فعل إنشائي جـــاء علـــى صيغة الأمر، والمقصود خلاف ذلك، لأن المقام مقام إخبار، كأنّه قال: فركبوا فيها يقولون: بسم الله،

---

[١] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ١/٢٩٠.

[٢] - الحج، ٣٠.

[٣] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ٣/١٥٤.

[٤] -هود، ٤١ .

وهي تجري بهم[١]، فعدل عن الماضي: ركبوا إلى الأمر: اركبوا، للعناية والاهتمام بامر نوح ومن معه، إذ إنّ الحدث هنا متحقق، ولايتوقّف الأمر على انتظار حدوثه ووقوعه.

٤ــ العدول عن الفعل المضارع إلى فعل الأمر:

يُعدل عن الفعل المضارع إلى فعل الأمر في السياق للدلالة على اختلاف الفعلين لفظاً ومعنىً، كقوله تعالى: ﴿**إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ**﴾.[٢]

فأتى بالفعل المضارع في أول الأمر: أشهدُ، ثم عدل عن الفعل المضارع إلى الأمر: اشهدُوا، وكان من المفروض أن يكون مضارعاً ليصحّ العطف لفظاً ومعنىً، فيكون التقدير: أُشهدُ اللهَ وأُشهِدُكم أنّي.....، ثم عدل عن الثاني إلى الأمر للفرق بين الإشهادين لأن إشهاد الله صحيح وثابت، وإشهادهم إياهم ليس إشهاداً حقيقياً، وإنما هو على سبيل السخرية والتهكم والتحدي والاستهانة، فهو "يقول لقومه: كونوا شهداء على أنّي لا أفعله، فإنْ قلتُ: هلا قيل: إنّي أُشهد الله، وأُشهدكم؟ قلت: لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشدّ معاقده، وأمّا إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة تهكماً به واستهانة بحاله.[٣]

هذا ما فسّره الزمخشري، في حين ذهب مذهباً آخر في قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ [٤]، فمنع عطف: اهْجُرْنِي، على: لَأَرْجُمَنَّكَ، لأنّ المعنى مختلف، فهو معطوف على محذوف يدلّ عليه: لَأَرْجُمَنّكَ، أي: فاحْذرني، واهْجرْني، لأنَّ: لَأَرْجُمَنّكَ، تهديد وتقريع.[٥]

---

[١] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ٢ / ٢٧٠.

[٢] - هود، ٥٤.

[٣] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ٢/٤٠٣-٤٠٤.

[٤] - مريم، ٤٦.

[٥] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ٣/٢١.

إنّنا نرى أنّ اللجوء إلى هكذا نوع من العدول كان لغرض أسلوبي، يجعل من اللغة العربية وقواعدها مرنة، تسمح بتوليد قواعد إضافية تكون فرعاً على الأصلية، لا تتماشى والنحو المعياري لكنّه ــ أي العدول ــ يعبر عن أوضاع دلالية جديدة، لا يمكن الوصول إلى معانيها ودلالتها إلاّ بمثل هذا العدول التركيبي.

٥ــ العدول عن صيغة الأمر إلى المضارع:

قد تكون صيغة الأمر بغير: افعلْ، فيعبّر عنها بصيغة: ليفعلْ، فتدلّ على الأمر، وقد يعطف على المضارع المركّب مع لام الأمر الدّال على الطّلب، للدلالة على أنّ هذا الأمر في معنى الخبر، لا الطلب، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً*وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً**﴾.[١]

فجاء في السياق القرآني بصيغة الأمر: فليمددْ، ثم عدل عن الأمر إلى الخبر بالفعل المضارع: يزيد، للدلالة على أنّ المراد فيه الخبر، وهو معطوف على موضع: فليمددْ، والتقدير: منْ كان في الضّلالة مدّ أو يمدُّ له الرّحمن ويزيد[٢]، ومن دلالات العدول هنا: **المبالغة في الطلب للتنبيه على سرعة الامتثال،** إذ حوى القرآن الكريم بعضاً من هذه الدلالات، فعندما علّق الزمخشري على قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ**﴾، [٣] قال: لا تعبدون، إخبار في معنى النهي، كما تقول: تذهب إلى فلان، وتقول له كذا، تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنّهي لأنّه كأنّه سُورِع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه.[٤]

وفي سورة الصف في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾[٥]: تؤمنون، هو خبر في معنى الأمر ولهذا أجيب بقوله، يغفر لكم، و

---

[١] - مريم، الآيتان، ٧٥-٧٦.

[٢] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ٣/٣٧-٣٨.

[٣] - البقرة، ٨٣.

[٤] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ١/ ١٥٩.

[٥] - الصف، الآيتان، ١٠-١١.

تدل عليه قراءة ابن مسعود[١]: آمنوا بالله، وجاهدوا، فإن قلت: لَمَ جِيءَ به على لفظ الخبر؟ قلت: للإيذان بوجوب الامتثال وكأنه امتثل فهو يخبر عن إيمان، وجهاد موجودين[٢]. وكقوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ**﴾.[٣] فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهُنَّ بالتربّص؟ قلت: هو خبر في معنى الأمر، وأصل الكلام: وليتربصْنَ المطلّقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر وإشعار بأنّه ممّا يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنّهنّ امتثلْنَ الأمر بالتربص.[٤]

٦ ــ العدول عن الأمر إلى الماضي:

هناك كثير من التراكيب قد تبدو للوهلة الأولى خبرية في بنيتها السطحية، لكنها في الحقيقة تحمل في معناها العميق معنًى إنشائياً، يقتضيه ظاهر المقام، فيعطي التركيب الخبري دلالة ومعنى لا يتوفران في التركيب الإنشائي لو صرَّح به. ولهذا يَعْدل المتكلم في حديثه أو خطابه عن الإنشاء إلى الخبر، لدلالة يرمي منها عن قصد تحقيق أمر ما، وقد ورد مصطلح: العدول، في: شروح التلخيص، عند الحديث عن وقوع الخبر موقع الإنشاء يقول التفتازاني: "ووقوع الخبر موقع الإنشاء إمّا أنْ يكون لإفادة التفاؤل كأن يقصد طلب الشيء، وصيغة الأمر هي الدّالة عليه، فيُعدل عنها إلى صيغة الماضي الدالة على تحقيق الوقوع تفاؤلاً".[٥] فالعدول عن التركيب الإنشائي إلى التركيب الخبري يكون لإبراز دلالة اقتضاها المقام، وهذا "العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك".[٦]

وسنقتصر على أهم الدلالات التي تفرزها ظاهرة العدول عن الأمر إلى الماضي في البنية السطحية، ودلالاتها في البنية العميقة، وهي إنزال الإنشاء منزلة الخبر، ومنها: **التفاؤل بوقوع الطلب**، إذ إنّ المتكلم قد يستعمل الجملة الخبرية التي فعلها ماضٍ مكان الجملة الإنشائية الطلبية التي تدلّ على الدعاء،

---

[١] - القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ١٨/٨٧.

[٢] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ٤/٥٢٦.

[٣] - البقرة، ٢٢٨.

[٤] - الإمام محمود بن عمر الزمخشري، **الكشاف**، ١ /٢٧٠.

[٥] - الخطيب القزويني، **شروح التلخيص**، ابن يعقوب المغربي، **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**، ٢/٣٣٨.

[٦] - ضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ٢/١٤.

للدلالة على تحقيق وقوع مضمون الجملة، لإدخال السرور إلى نفس المخاطَب، كقولك: **أعاذَكَ اللهُ منَ الشُّبهة، وعصمَك منَ الحيرةِ، ووفّقك للتقوى.**[١]

فأصل التراكيب السابقة في بنيتها العميقة تراكيب إنشائية هي: اللهُمَّ أعذْهُ منَ الشّبهةِ، وأعصمْهُ منَ الحيرة، ووفقْهُ للتّقوى، فلمّا أراد تحقق وقوع الفعل، أو توهّمَ أنه متحقق وحاصل، عدل عن صيغة الأمر إلى صيغة الخبر، للدلالة على تحقق الوقوع، وإدخال السرور إلى نفس المخاطب؛ ومن الدلالات أيضاً: **إظهار الحرص (الرغبة) في وقوع الطلب**، وهذا النوع من العدول يتعلق بذات المتكلم، لأن الطالب شيئاً إذا عظمت رغبته فيه وكثر تصوّره له ظنّ أنّه واقع وحاصلٌ من زمان، فيعدل عن لفظ الفعل الإنشائي إلى لفظ الفعل الخبري المفيد للحصول للدلالة على إظهار الرغبة والحرص في وقوع الفعل وتحققه، نحو: رزقني اللهُ لقاءَك[٢]؛ **أمّا الدّعاء له وعليه**، فقد يعدل غالباً عن استعمال فعل الأمر إلى استعمال الفعل الماضي للدلالة على الدعاء، فحين نذكر الرسول الكريم نقول: **صَلّى اللهُ عليهِ وسَلّم**، أي: صلِّ وسلّم عليهِ، ولأجل التأدّب مع الله واليقين بتحقق الدلالة وكأنها واقعة يستعمل المتكلم في ذلك كلّه الأسلوب الخبري الذي يفيد الدعاء له، وكقول طرفة بن العبد[٣]:

فَسَقَى بِلادَكَ غَيرَ مُفسِدِها صَوبُ الرَّبِيْعِ وَدِيمَةٌ تَهمي

فهو لم يكتف بالدعاء للديار بالسقيا، وإنما احترس في كلمة: غير مفسدها، لّما عرف عن المطر من تخريب الديار، أي: أصابها مطرٌ نافعٌ لا يخربها، ولا يزيد على ريّها وحاجتها والتقدير: ليسقِها.

وقد يعكس الأمر فيعدل عن صيغة الأمر في الدعاء عليه إلى الماضي، كقولك: **زيداً قَطَعَ اللهُ يدَهُ، وزيداً أمرَّ اللهُ عليهِ العيشَ**، لأنّ معناه معنى: زيداً لِيقطَع اللهُ يدَهُ [٤].

---

[١] - السكاكي، **مفتاح العلوم**، ٣٢٤. الخطيب القزويني، **الإيضاح في علوم البلاغة**، ١/١٤٦. سعد الدين التفتازاني، **شروح التلخيص**، ٢/٣٣٨

[٢] - السكاكي، **مفتاح العلوم**، ٣٢٤-٣٢٥. **الإيضاح في علوم البلاغة**، ١/١٤٦-١٤٧. سعد الدين التفتازاني، **شروح التلخيص**، ٢/٣٣٨-٣٣٩.

[٣] -**ديوانه**،ص٩٧.

[٤] -سيبويه، **الكتاب**،١/١٤٢. ابن يعيش، **شرح المفصل**،١/٨٧. حسين جمعة، **جماليات الخبر والإنشاء**، ص ٣٨.

الخاتمة

ولا يسعنا إلاّ أن نقول في بلاغة العدول كما قال يحيى بن حمزة: "له موقع عظيم في البلاغة، فالعدول من جهة، افتتان في الكلام، وتوسُّع فيه، ومن جهة أنّه إذا نُقِل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر كان ذلك أنشط للإصغاء، وأعظم شوقاً للسامع إلى سماعه، وأكثر تحريكاً للداعية إلى قبوله من أن يكون على أسلوب واحد"(١).

فالعدول في التركيب الفعلي، وإخراج الكلام لا على مقتضى الظّاهر، هو وجه من وجوه حيوية اللغة وجماليتها؛ لِمَا يفضيه من تنويعات تركيبيّة تتجلّى بالتضاد في الأفعال، والتبديل في أشكالها الثابتة، وهذا الازدواج في السياق النصّي يؤدّي إلى تشكيل تحولات ومتغيرات دلالية جديدة، تؤدّي إلى اختلاف الزمن، فهو، أي التضاد، المحرّك الأساس لأزمنة الأفعال التي تفرز تراكيب متنافرة الزمن، متواشجة الدّلالة، ومن هنا نجد أنّ العدول إلى الماضي، أو المضارع، أو الأمر يولّد طاقة تعبيرية، وقدرة تحويلية على إثارة الحدث، ولفت انتباه القارئ، وخلق فضاءات دلالية أكثر، وأبعاد جمالية نادرة. لا تؤديها صيغة بزمن محدّد.

لقد أكّد البحث القيمة الوظيفية التي يؤدّيها العدول في بنية النص المتحركة، ما يجعل أنساقها ذات صفة دينامية، وأبعاد دلالية. و لم يردِ العدول في النصِّ بفعل المصادفة، إنّما جاء عن قصد، متنوّع الصور، لغرض أسلوبي؛ يجعل قواعدَ العربية أكثرَ اتساعاً، ومرونة بحسب المراد والمقصود، على الرَّغم من مخالفة قواعد النحو المعياري، فإنّه يولّد تراكيب لا يمكن الوصول إلي معانيها إلاّ بمثل هذا العدول التركيبي، فكلُّ عدول في اللفظ يقتضي عدولاً في المعنى، وبهذا تتبادل الأفعال دلالتها الزمنية، من خلال التركيب السياقي، لا من بنيتها الصرفية المفردة، فالعدول اختيار من إمكانات اللغة، لا انتهاك لقواعدها، وإن كان خروجاً على القياس النحوي، أو خرقاً لنظام العربيّة، فالابتعاد عن الاستعمال المألوف، وإيقاع الانزياح في نظام اللغة، هو رمز جماليتها، ومهما يكن من أمر فلا يمكننا احتواء كلّ دلالات العدول في التركيب الفعلي لكثرته.

١- **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز**، ٤٣٥.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. الأنصاري، ابن هشام، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، حققه وعلق عليه د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، ١٩٧٢.

٢. ابن الأثير، ضياء الدين، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٣٩.

٣. ابن جني، **الخصائص**، حققه محمد علي النجار، ط٢، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

٤. ابن منظور، **لسان العرب**، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري، ط٢، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٢.

٥. ابن يعيش، **شرح المفصل**، عالم الكتب، بيروت، لبنان، مكتبة المتنبي، القاهرة، د.ت.

٦. البحيري، أسامة، **تحولات البنية في البلاغة العربية**، ط١، دار الحضارة، مصر، د.ت.

٧. بوخاتم، مولاي علي، **مصطلحات النقد العربي السيماءوي، الإشكالية والأصول والامتداد**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.

٨. تحريشي، محمد، **النقد والإعجاز**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤.

٩. جمعة، حسين، **جماليات الخبر والإنشاء، دراسة بلاغية جمالية نقدية**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.

١٠. حسان، تمام، **اللغة العربية، معناها ومبناها**، ط٣، عالم الكتب، ١٩٩٨.

١١. **ديوان طرفة بن العبد**، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٥٧.

١٢. الزجاجي، أبو القاسم، **الإيضاح في علل النحو**، تحقيق د. مازن المبارك، ط٣، دار النفائس، بيروت،١٩٧٩م.

١٣. الزمخشري، الإمام محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.

١٤. الساقي، فاضل، **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧

١٥. السكاكي، **مفتاح العلوم**، ضبطه، وكتب هوامشه، وعلق عليه نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٧.

١٦. سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط ٦، عالم الكتب، بيروت، ١٩٦٦.

١٧. السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨.

١٨. السيّد، علاء الدين رمضان، **ظواهر فنية في لغة الشعر العربى الحديث**،منشورات الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦

١٩. **شرح الرضي على الكافية**، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة قار يونس، ١٩٧٨.

٢٠. **شروح التلخيص**، وهي مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح،للخطيب القزويني ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، لابن يعقوب المغربي، دار السرور، بيروت، لبنان، د.ت.

٢١. طبل، حسن، **أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية**، ١٩٩٠.

٢٢. العلوي، يحيى بن حمزة، **الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز، من العلوم البيانية والأسرار القرآنية**، ط١، تحقيق د. بن عيسى باطاهر، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧.

٢٣. العلوي، يحيى بن حمزة، **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، مطبعة المقتطف، مصر، ١٩١٤.

٢٤. الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار السرور، د.ت.

٢٥. فندريس، **اللغة**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠.

٢٦. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني، ط٢، ١٩٥٢.

٢٧. القزويني، الخطيب، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، د.ت.

٢٨. ويس، أحمد محمد، **الانزياح في التراث النقدي والبلاغي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٢.